صلاة العصافير

للأستاذ محمود شلبي

كان الوقت فجراً ، أو بعد صلاة الفجر ، وعلى وجه التحديد ، عند ما خرجت وصاحبي ، إلى شاطىء النيل نملأ صدورنا من نسمات الفجر الرطيب .

وبدأت الأنوار تملأ الآفاق ، وانتشرت الطيور من كل صنف ، على الأشجار .

كل هذا شيء مألوف ، لا يثير انتباهاً ، ولا يلفت نظراً .

إلا أن الشيء الذى أدهشنى أننى لاحظت أن الأمر يجرى على نظام عجيب .

تسمع عصفورا واحداً يزقزق وحده ، ثم تنطلق سائر عصافير الشجرة تردد من ورائه .

ثم تستمر المجموعة كلها فى نشيد متواصل ، هو غاية فى الإبداع والجمال .

وسمعت الأشجار كلها وقد تحولت إلى نشيد واحد مقدس ، لا تدرى أوله من آخره ، كل يزقزن ويشقشق ، فرحا مسروراً .

ولم يقف الأمر عند العصافير ، ولكنه امتد إلى اليمام ، وانطلقت أصواتها الجميلة الوداعة ، تعطر الكون بألحانها الصافية .

حتى الغربان ، والحدأة ، كلها جعلت تطلق أصواتها ، التى كتب الله عليها أن تكون .

ومن هنا ... ومن هناك ، تحولت الأشجار كلها إلى نشيد واحد مقدس يشترك فى أدائه آلاف من الطيور ، مختلفاً ألوانها .

ورن فى أذنى على الفور قوله تعالى : « ألم تر أن الله يسبح له ما فى السموات والأرض ، والطير صافات ، كل قد علم صلاته وتسبيحه ، والله عليم بما تفعلون ؟ »

فأدركت على الفور أن الأمر أمر صلاة مفروضة ، على تلك الطيور ، وليس الأمر أمر غناء كما يظن أكثر الناس .

إن الناس يظنون أن هذه الطيور تغنى ، وهم فى ذلك مخطئون خطأ كبيراً .

إن الله قد فرض عليها صلاتها ، وعلمها كيف تؤديها ، ومتى تؤديها .

ولقد علمنى موكب الطيور فى الصباح ، أن مصدر الوحى واحد ، إليها وإلى الإنسان ! .

وآية ذلك أن الله أمر الإنسان فى القرآن فقال : « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب »

أمر الله الناس أن يسبحوه قبل طلوع الشمس مرة ، ومرة أخرى قبل الغروب .

وتجد أن الله قد أمر الطيور بنفس الأمر ، ونفس النظام !

فتجد الطيور كلها قبل طلوع الشمس تسبح الله فى أفواج وأمواج ، متتابعة من أصواتها الجميلة .

حتى إذا مالت الشمس للمغيب ، آبت الطيور كلها إلى أعشاشها وأغصانها ، وانطلقت تؤدى كلها صلاتها ... نفس الأسلوب الذى كان منها فى الصباح ... تعود لتأديته فى المساء ... ولكن قبل الغروب .

ما هذا ؟ وأى شىء يستنبط من هذا ؟ .

إن الذى أنزل القرآن ، أمر الناس بتسبيحه ، قبل طلوع الشمس ، وقبل الغروب والذى خلق الطيور ، أمرها كذلك بتسبيحه قبل الشروق ، وقبل الغروب ! ! .

نظام مطلوب من الناس ، ومطلوب من الأطيار .

فالأدلة المستنبطة من النظامين ، أنهما صادران من شىء واحد ، وأن ذلك الشىء يريد لمخلوقاته كلها نظاما موحدا ، وأنه يحب هذين الوقتين بالذات ليسبح فيهما ويحمد فيهما .

ذلك هو الله ... أوحى إلى الطيور أن تسبحه فى الوقتين المحبوبين عنده ... وهو سبحانه أمر الإنسان أن يسبحه فى نفس الوقتين ! .

وإنى لأستدل على أن القرآن من عند الله ، وأنه كلام الله ، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، من هذا النظام الذى تعيش عليه الطيور ، منذ خلقها الله .

فما من طير يطير بجناحيه ، فى الأرض ولا فى السماء ، إلا يسبح الله ربه قبل طلوع الشمس وقبل الغروب .

ولو تصورنا أن أوقات الغروب وأوقات الشروق ، فى الكوكب الأرضى مختلفة ، تتعاقب وراء بعضها البعض ... أدركنا أن وقت ما قبل الشروق ، وما قبل الغروب ، متتابع فى الآفاق ، وأن نشيد الطيور متواصل متتابع فى هذه الدنيا .

ولو أمكن أن نتصور ملايين الطيور التى تعيش على الكرة الأرضية ، وأنها تنهض من نومها تباعا ، حسب أوقات الشروق والغروب فى بلادها ... ثم تنطلق تسبح وتصلى .. لأمكن لنا أن ندرك أى جمال وضعه الله لها ، فى صلاتها وتسبيحها .

ولو التفتنا بقلوب واعية إلى توجيه الله للانسان ، عند ما يأمره بتسبيحه قبل الشروق وقبل الغروب ، لأدركنا أن الله يريد من الإنسان أن يندمج مع سائر المخلوقات ، وينتظم معها فى موكب واحد .

ولأدركنا على الفور أن الله يسبحه كل شىء طوعا وكرها .

ولو مددنا تفكيرنا بعيداً . . عميقاً . . وتصورنا أن الأمر ليس أمر الطيور وحدها ، وإنما كل شىء ، من الذرة أو ما هو دونها ، إلى أكبر شىء فى الكون أو ما هو وراء ذلك الأكبر ... كل أولئك يسبح الله ... شاء أو لم يشاء .

وهنا يرن فى آذاننا قول السبوح القدوس : « وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » فندرك على الفور أن الكون كله يردد نشيداً واحداً الله ... الله ... الله ...

لو تصورنا هذا ... أدركنا مدى تفاهة الإنسان حين يتأبى على ربه ، ويتعالى على بارئه ، ويأنف أن يصلى لخالقه .

من أنت أيها الإنسان المعرض ، بالنسبة إلى كون بأكمله ، يسبح الله خالقه ؟

ولنفترض أن أصوات الناس جميعا ، حذفت من نشيد الكون الأقدس ، فهل هذا ينقصها شيئا من جمالها وكمالها ؟

كلا ... وإنما هى الرحمة ... يريد الله أن تشملنا رحمة ذلك النشيد ، وأن يغمرنا جمال ذلك الدعاء العام .

أما ... سبحانه وتعالى ... فلا تضره معصية ... ولا تنفعه طاعة « يا عبادى .. لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم ... ورطبكم ويابسكم ... اجتمعوا على قلب ألفى رجل منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ... »

إن الألوهية فى عليائها مستغنية بذاتها عما سواها .

وإنما افترضت علينا ، وعلى سائر المخلوقات ، تسبيحها ، لأن فى ذلك صلاحنا ، وصلاح سائر الكائنات .

فالذين يعرضون إنما يهلكون أنفسهم .. والله مع هذا .. ما زال يدعوهم إليه ، ليرفع من خستهم ، ويصلح من شأنهم ! ! .

ذلك هو استدلالى على أن القرآن من عند الله ، لأنه لا أحد يستطيع أن يدرك ذلك النظام الموحد للكائنات ، إلا الله سبحانه .

ذلك أن العلم البشرى علم ناقص ، لا يستطيع أن يدرك الأمور فى شمولها وعمومها ويربطها ربطا عاما محكما .

لكن الله .. الذى يرى الكون كله فى وقت واحد ، الذى يعلم السر فى السموات والأرض ، الذى وضع السنن والقوانين التى تجرى عليها الخلائق ما يعلم علما شاملا كاملا الأمور كلها .

هو يعلم أنه حين خلق الطيور ، أوحى فيها أمرها ، أن تسبحه قبل طلوع الشمس وقبل الغروب .

ويعلم أنه حين خلق الإنسان ، جعله مستعداً مؤهلا لأن يشارك فى هذا النشيد ، وفوق هذا وذاك هو سبحانه يعلم من نفسه أنه يحب هذين الوقتين ليسبح فيهما .

فأنزل فى كتابه الذى أنزله على الإنسان « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب » .

وهذا هو وجـــه الاستدلال على أن القرآن تنزيل من رب العالمين ، لأن أوامر القرآن تطابق نظام الطيور ، وهذا يستلزم علماً شاملا محيطاً بنظام الـكون العام .

ما أعظم العصافير ! .

ما أعظمها وهى منقادة لأمر ربها ، تملأ الآفاق بأنا شيدها ! .

وما أعظمها . . . قبل طلوع الشمس ، وقبل الغروب ! .

وما أعظم أولئك الذين هداهم الله ، فشاركوا فى الموكب الأقدس . . . وسبحوا ربهم معها قبل طلوع الشمس ، وقبل الغروب ! ! ؟

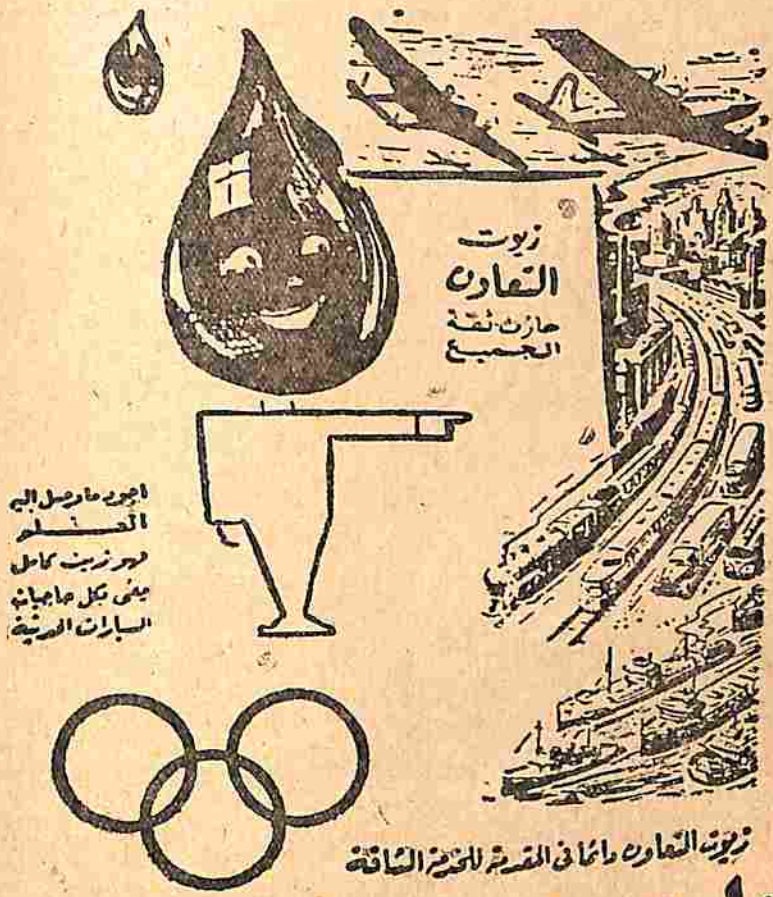

جواهر من تراثنا

وقود النار

قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

« يظهر هذا الدين حتى يجاوز البحار ، وحتى تخاض البحار بالخيل فى سبيل الله تبارك وتعالى ، ثم يأتى أقوام يقرأون القرآن ، فإذا قرأوه قالوا : من أقر أمنا ؟ من أعلم منا ؟ ثم التفت صلوات الله عليه إلى أصحابه فقال :

هل ترون فى أولئكم خير ؟ ؟ قالوا : لا . قال . أولئك منكم وأولئك من هذه الأمة ، وأولئك هم وقود النار :

كأن الملائكة أدبته

سئل الحسن البصرى عن عمرو بن سعيد ، فقال للسائل : لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته ، وكأن الأنبياء ربته ، إن قام بأمر قعد به ، وأن قصد بأمر قام به ، وإن أمر بشىء كان ألزم الناس له ، وإن نهى عن شىء كان أترك الناس له ، مارأيت ظاهراً أشبه بباطن منه ، ولا باطناً أشبه بظاهر منه .

العلم ثلاثة أشبار

يقول الشعبي رضى الله عنه :

العلم ثلاثة أشبار ، فمن نال منه شبراً شمخ بأنفه ، وظن أنه ناله ، ومن نال الشبر الثانى صغرت إليه نفسه ، وعلم أنه لم ينله ، وأما الشبر الثالث فهيهات لاينناله أحد أبدا .

كرامة العلماء

يقول ابن الأنبارى : كان أبو عبيدة القاسم بن سلام يقسم الليل اثلاثا ، فيصلى ثلثه ، وينام ثلثه ، ويضع الكتب ثلثه ، وكتابه غريب الحديث هو أول كتاب نظم علم الحديث ، ظل فى تصنيفه أربعين سنة . كان يقول خلالها ، « ربما كنت أستفيد الفائدة من أقواء الرجال فأضعها فى كتاب ، فأبيت ساهراً فرحاً بتلك الفائدة .

ولقد طمع الأمير عبد الله بن طاهر ببغداد أن يسمعه منه فأبى إلا إذا حضر الأمير إليه . وقد كان . . ! !

إيثار الصحابة

روى الأمام القشيرى أن عبادة بن الصامت رضى الله عنه اهدى إليه رأس شاة فقال إن أخى فلانا وعيا له أحوج إلى هذا منا ، فبعث بها إليهم ، فلم يزل يبعث بها كل واحد إلى آخر حتى تناولها سبعة أبيات ثم رجعت إلى عبادة . . ! !

من هو الفقيه

سأل فرقد اليمنى الإمام الحسن البصرى عن مسأله فأجابه ، فقال له فرقد : ، إن الفقهاء يخالفونك . فقال الحسن . وهل رأيت بعينك فقيها ؟ إنما الفقيه الزاهد فى الدنيا ، الراغب فى الآخرة ، البصير بدينه ، المداوم على عبادة ربه ، الذى لا يهمز من فومة ، ولا يسخر ممن دونه ، ولا يبتغى على علم علمه الله تعالى أجرا .

من يعمل بيده

كان مالك بن دينار الصوفى الزاهد وراقا يكتب المصاحف بالاجر ولا يأكل إلا من كسب يده ويرد كل مال يرسل إليه . وكان يقول : قرأت فى التوراة أن الذى يعمل بيده طوبى لحياه ومماته .